عيسى عليه السلام . . ابن اللَّه أم عبد الله!

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

إن من ضعف البصيرة أن نتخيل أن الخالق له ابن، وقد بيَّن الحق هذه القضية في سورة الكهف حين قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف].

إن الحق سبحانه. تعالى أن يكون له ولد، إنه منزّه عن ذلك، وكانت البداية هي أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة بنات اللَّه، ومضوا يتصورون ذلك، وكان ذلك قمة الشرك باللَّه؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات.

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال في التصور من بعض اليهود فقالوا ما بيَّنه لنا الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وعزير هو كاهن من نسل هارون، وكان يكتب التوراة، وعندما تصور اليهود أنه ابن للَّه خرجوا عن الوحدانية للَّه جل وعلا، وابتدع البعض من أتباع المسيح أيضاً تصورا بأن المسيح ابن للَّه، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول ولا حجة عليه ولا برهان، فكيف يقع في ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا؟! إن قول الحق عن ذاته: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعني التنزيه المطلق عن ذلك، فقال جل وعلا في كتابه الكريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾ [مريم].

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا فى ضلال التصور أن للّه أبناء من الملائكة أو البشر، وذلك قول شديدٌ منكرٌ تكاد الجبال تسقط قطعاً مفتتة منه، وتكاد الأرض تنخسف، وتكاد السموات يتشققن منه، كأن المخلوقات التى لا تملك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار من فرط الإنكار لمثل ذلك القول. إن ضلال ذلك التصور تسلل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة الحق عندما يقول للشىء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، إن المسيح كلمة من اللّه هى ﴿كُن﴾ فكان مثلما خلق آدم عليه السلام، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

إن شأن عيسى عليه السلام واضح مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم، وكان الأجدر أن يفتن الناس بخلق آدم عليه السلام؛ لأن عنصر الأبوة والأمومة فى إيجاده ممتنع، أما عيسى عليه السلام فعنصر الأبوة وحده الممتنع، وبعد ذلك يعلم الحق جلّ وعَلَا رسوله ﷺ محمداً لو كان لله ولد لكان الرسول أول العابدين له فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين أنه لو صحّ بالبرهان أن للرحمن ولداً لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد، لكن البرهان لا يستقيم؛ فكيف يكون للّه - الذى ليس كمثله شىء القديم الذى لا نهاية لوجوده - ولد من البشر؟!

إن كل كائن بشرىّ إنّما هو حدث عارض بالميلاد والموت، ثم البعث بين يدى الحق؛ لينال الثواب أو العقاب ولكن اللّه حيّ لايموت.

إن الخالق هو مالك الملك، له ما فى السماوات وما فى الأرض، والكون كله خاشع خاضع له، وملكية الكون تنفى الوالدية عن الحق سبحانه.

إن الكون مفعول من قبل اللّه، والكون بكل مَنْ فيه وما فيه أقل مِن فاعله. وإذا كان الإنسان يحتاج للأولاد خلفاً له بعد مماته، فخالق الحياة منزّه عن ذلك. إن الأبناء فى الحياة مظهر قوى للآباء، لكن خالق الحياة قوته منزهة عن أن تتم طلاقتها من وجود أبناء.

إن الأبناء يوجدون فى الحياة معونة للآباء. والحق لا يستمد معونة من أحد؛ إنه حى بلا نهاية، إنه القاهر فوق كل عباده ومخلوقاته، تنفعل الأشياء كلها بإرادته إنه يريد الشىء فيبرزه إلى الوجود: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

إن الحق جل وعلا سبحانه وتعالى له كل صفات القدرة. إن كل الخلق متعلق بقدرة اللَّه، وقدرة اللَّه موجودة قبل خلق الكون.

❁❁❁

الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فكأن عدم اتخاذ اللَّه سبحانه وتعالى ولداً، نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها؛ لأنه سبحانه لو كان له ولد - وتعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيراً- لخصَّه بالرعاية وترك بقية الخلق، فكأن الحق يقول أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء، فالخلق كلهم سواسية عند اللَّه، وهذه نعمة للخلق جميعاً؛ لأن رحمة اللَّه وحنانه سيكونان لنا جميعاً؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد مذكوراً بعد موته، واللَّه تعالى منزَّه عن الموت، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون عُلوًّا كبيراً، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن اللَّه هو القهار، وهو الجبار، وهو القوىّ، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد.

وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتى إما من الصاحبة، وإما من الولد، كذلك لو كان للَّه شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه؟ ومن الذى تعبده وكيف يسير الكون؟ إنها عملية غير مقبولة.

ولذلك قال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين، لهذا يأمره أحدهم بشىء والآخر يأمره بعكسه فلابد أنه سيتعب جدًّا، ولكن العبد الآخر له سيّد واحد، فهذا لا شك أنه سيكون مرتاحاً عن الآخر، فكذلك الإنسان الذى يعبد اللَّه وحده والذى يعبد آلهة متعددة، فما دام اللَّه ليس له شريك فى الملك فأوامره نافذة بدون معقّب، وتطمئن إن أمرت بشىءٍ منه أنه ليس هناك قوة أخرى تمنعك من تنفيذه. والولىّ هو الذى يليك، وأنت لا تجعله يليك إلا إذا كان نافعاً لك فهو قوى وأنت ضعيف؛ فينصرك لأن لك أعداء، فلأنك ذليل وليس عندك ذاتية تذهب إلى من

عنده ذاتية وتحتمى به وتأخذ ولاءه، فالحق سبحانه وتعالى ليس له ولىّ من الذل لأنه هو العزيز المعز.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ يشير إلى أن تكبير الله تعالى جعل شعار الأذان والصلاة، فكل ما دون الله من الأغيار فالله أكبر منه، فإن ناداك وأنت فى أى عمل فقل: الله أكبر من عملى، إن ناداك وأنت مع عظيم فقل: الله أكبر من أى عظيم

فمعنى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾: أن تقدم أوامره ونواهيه على كل أمر أو كل نهى؛ لأنك إن كَبَّرت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك، ولذلك فعزّة الله لخلقه تأتى لمن يخلص العبودية. وكلمة العبودية مكروهة إلا إذا كانت لله؛ لأن العبودية لله عزة، ولكن عبودية الإنسان للإنسان هى المكروهة والمذمومة، وتقوم بسببها معارك وحروب فى العالم كله؛ وذلك لأن فى هذه العبودية السيد يأخذ خير العبد، ولكن عبوديتنا لله نأخذ نحن العبيد خير السيد وهو الله، فهذه عزة وليست ذِلة؛ فإن يكون الإنسان عبداً ذليلا لله ففى ذلك كمال عزته، كما يقول أحد الصالحين:

حسب نفسى عِزّا بأنّى عبدٌ ... يحتفى بى بلا مواعيدَ رَبُّ
هو فى قدسه الأعزُّ لكن ... أنا ألقَى متى وأين أحبُّ

ونحن قلنا سابقاً: إذا أردنا مقابلة عظيم من العظماء، نكتب له طلباً للمقابلة، ونوضح له فيه أننا نريد مقابلته من أجل كذا وكذا، فإن كان عنده وقت رد عليك وحدد لك زمان ومكان ومدة المقابلة، وهو الذى ينهى اللقاء، لكن ربنا سبحانه أخبرنا أن الزمام فى يدك بمجرد أن آمنت به خالقاً، فى أى وقت شئت كَلِّمْهُ فى أى شىءٍ تريد، وأنت الذى تنهى اللقاء؛ لأن الله لا يمل حتى تملوا، كما قد أخبرنا رسول الله ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا[1]». فهل هناك عز أكبر من هذا!!

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الاسراء والمعراج أنه عبد الله؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

إذن.. العبودية له سبحانه عزة فكبره تكبيراً، واعلم أنك إن التجأت إليه وكنت فى معيته كنت أكبر من غيرك، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء لأنك فى

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٨٦١] ومسلم [٧٨٢/ ٢١٥] عن عائشة رضى الله عنها.

معية اللَّه ومن كان اللَّه معه فلا يحزن، ولكن الذى يشرد من معيّة اللَّه هو الذى يتعب، إن الذى يظل فى معية ربه لا يستطيع أحد أن يناله بسوء أبداً.

ولذلك فالإنسان الصحيح القوى يعيش فى معية نعمة اللَّه، فإذا مَرِضَ أصبح فى معية اللَّه ذاته، ويوضح ذلك الحديث القدسى الذى يقول فيه الحق سبحانه: «يا ابن آدم، مرضت فلم تعدنى. قال: ياربِّ، كيف أعودك وأنت رب العالمين قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مَرِضَ فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده...[1]»، فأى مريض يشعر بأن اللَّه معه ماذا يكون موقفه؟ لا يشعر بألم المرض أبداً، ويستحى أن يتأوّه، وكيف يتأوه وهو فى معيّة اللَّه؟!

ولذلك يقولون: الصحيح مع نعمة اللَّه، والمريض مع اللَّه ذاته، والشرع حضَّنا على عيادة المريض لنخفف عنه ونؤنسه وننسيه آلامه[2]، ثم إذا عرف أنه فى معية اللَّه واستحضر هذه المعية لا يشعر بألم أبداً.

وختم اللَّه تعالى سورة الإسراء بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] وأعظم نعم اللَّه علينا هذه النعم الثلاث وهى ليست كل النعم التى أنعم اللَّه بها علينا، بل للَّه نعم كثيرة، لكنها قمة النعم التى نحمد اللَّه عليها.

فالحمد للَّه الذى لم يتخذ ولداً؛ لأنه لم يلد ولم يولد، وهو الواحد الأحد، والحمد للَّه الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد، والحمد للَّه الذى لم يكن له ولىّ من الذل؛ لأنه قاهر عزيز قوى، ولهذا يجب أن نكبر هذا الإله تكبيراً فى كل نعمة نستقبلها منه.

❁❁❁

إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وإن هنا هى إنْ النافية وهى غير إن الشرطية وإليكم هذا المثال عن إن النافية

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٦٩/ ٤٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

(٢) اشارة إلى ما أخرجه مسلم [٢٥٦٨/ ٤٢] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: «من عاد مريضاً، لم يزل فى خرفة الجنة» قيل: يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: جناها».

من موضع آخر من القرآن حين قال الحق: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة: ٢].

إن الحق هنا يقول لهؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته: أنت محرمة عليَّ كظهر أمي. هؤلاء يقول الحق لهم مصححًا هذا الخطأ الذي وقعوا فيه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ [المجادلة: ٢]. أي أن الحق يوضح ما يلي: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وإنْ في هذه الآية التي نحن بصددها هي إنْ النافية؛ كأن الحق يقول: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمن به قبل موته. هذا معنى إن النافية.

وقد يقول قائل: ما حكاية الضمائر في آية سورة النساء؟ لأن الآية بها أكثر من ضمير، مثال ذلك قول الحق في نفس الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ على من تعود ﴿بِهِۦ﴾؟ وعلى من تعود الهاء في آخر قوله: ﴿مَوْتِهِۦ ۖ﴾؟ هل موت عيسى أم موت واحد من أهل الكتاب؟ فالمذكور عيسى ومذكور أيضاً أهل الكتاب في ﴿بِهِۦ﴾ الأولى فيها «هاء» قد يصح أن يكون القول كالآتي: «لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى»، يصح أيضاً: «لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب» لماذا؟ لأن الضمير لا يُعرف إلا بمرجعه، والمرجع هو الذي يبين الضمير، فالواحد منا يقول: جاءني رجل فأكرمته. الضمير هنا يرجع إلى إكرام الرجل. وحين نُرجع الضمير على مرجعه، فالمرجع هو الذي يحدد معناه؛ فإن كانت هناك ألفاظ كل منها يصح أن يكون مرجعاً؛ إنها تحتاج إلى عملية عقلية، فعندما يقول قائل: «تصدقت بدرهم ونصفه» فمعنى ذلك أن الرجل تصدق بالدرهم وبنصف مثيل له.

إذن.. فالضمير إما أن يعود على كل المرجع، كأن يقول واحد: «جاءني رجل فأكرمته»، وإما أن يعود الضمير على مثل المرجع كأن يقول واحد: «أكلت رغيفاً ونصفه» أي أن هذا القائل قد أكل رغيفاً ونصف رغيف آخر، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه؛ كقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۚ﴾ [فاطر: ١١].

إن المعمر هو الإنسان الذي طعن في السن ولا ينقص من عمر هذا المعمر، إلا كما أراد الله. إن الهاء في ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ تعود إلى بعض من المعمر، فالمعمر ذاتٌ ثبت أن لها التعمير، ذلك أن كلمة ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ مكونة من عنصرين هما: ذات الرجل وعمر الرجل، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير، فيكون المعنى هو:

وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير؛ لكن ماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان؟

مثال ذلك، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ إننا هنا أمام مرجعين: «السماء والعمد» فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة بكلمة ﴿تَرَوۡنَهَا﴾، هل تعود الهاء إلى المرجع الأول وهو السموات، أم للمرجع الثانى وهو العمد؟ يصح أن تعود الهاء إلى السموات ويصح أيضا أن تعود إلى العمد، وهى عمد بنظام آخر غير العمد المعروفة لنا. إنها عمد وضعها الحق سبحانه بقوانين الجاذبية. نحن نرى السماء بدون عمد وقد رفعها الله، أو هو رفع السموات بغير عمد، أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر؛ لأن الرفع قد تم بقوانين الجاذبية، هكذا يصح أن ينسب الضمير إلى أحد المرجعين.

وهكذا عرفنا أن الضمير من المعارف، إلا أنه فيهم لا يبين معناه إلا بمرجعه، فإن رجع فإما أن يكون معناه للمرجع كله أو مثل مرجعه أو من بعض مرجعه، فإن رجع إلى أمرين قد سبقا، فالعملية العقلية تسمح لنا أن نعرف أن الضمير يرجع إلى كل منهما أو أى منهما.

الآية التى نحن بصددها نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما: المسيح، وأهل الكتاب، وفيها ضميران اثنان؛ فهل يعود الضميران على عيسى، أم يعود الضميران على أهل الكتاب، أم هل يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب، وأى منهما الذى يرجع على عيسى، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب، أم أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يذكر ويُعلم من السياق وهو محمد ﷺ؟

نقول: إن الضميرين يرجعان إلى المرجع الثالث الذى لم يذكر ونعلمه من السياق، إن الضميرين يرجعان إلى محمد ﷺ الذى بشَّر بمجيئه عيسى ابن مريم، وتواترت الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله ﷺ.

❁❁❁

إقرار عيسى بعبوديته لله تعالى

يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وعلينا أن نعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وتعالى وعيسى ابن مريم يوم يجمع الحق سبحانه الرسل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

قد يقول قائل: لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى؟! للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحقّ سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

فيجب أن نعرف أن لكل حدث زمانًا ومكانًا؛ وزمان هذا الحدث يوم القيامة، ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر. والحق سبحانه وتعالى خالق كل زمان وكل مكان، وله أن يتحدث فى أى أمر بأى صيغة شاء، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل؛ فالحق قد أوجد كل شىء من ماضٍ وحاضر ومستقبل، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق. وذلك أمر مختلف عن حالة الحادث العارض وهو الإنسان، فالحق تَقَدَّستْ أسماؤُهُ وصفاته أزلى قيوم، أما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف. إن الزمن بالنسبة لأفعالنا واحد من ثلاثة: ماضٍ، أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم مثل قولى: قابلنى زيد. ومعنى ذلك: أن الفعل قد تم وصار مُحَقَّقًا.

وحاضر: أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه الآن، مثل قولى: يقابلنى زيد. ومعنى ذلك أن العين ترى زيدًا الآن، ومستقبل: أى أن الحادث سوف يقع، كقولى: سيقابلنى زيد. وهذا الزمن المستقبل لا يملك الإنسان فيه أن يحدث منه الحدث، ولا يملك ألا يقع أمر على الإنسان الذى سوف يقابله قد يمنعه من إتمام الحدث، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب قائماً.

إذن.. فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء؛ لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث. إن الذى يملك ذلك كله هو اللّه سبحانه وتعالى وحده؛ ولذلك يأمرنا اللّه عندما نعزم على فعل أمر أن نقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... ﴿٢٤﴾﴾. إن على الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه، وليس معنى ذلك أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل أو الأخذ بالأسباب. لا، إنه يطلب منا أن نخطط، وأن ندرس كل الاحتمالات، وعلينا أن نقول: إن شاء اللّه قبل وبعد هذا التخطيط؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر والذى لا مُعقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفثوا سمومهم فى عقول المسلمين، بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن، فقال قائل منهم: كيف يقول الحق تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

إن هذا خبر عن يوم القيامة، فكيف يأتى به اللَّه سبحانه وتعالى على صيغة الماضى، وكيف يقول: و﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وكيف يكون الاستعجال على شىء لم يحدث بعد؟!

نقول لمن قال ذلك: إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى، وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه. إن المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها، فعندما يقول سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ فمعنى ذلك أن الأمر آت لا محالة؛ لأنه لا قدرة تخرج عن مراده؛ لأنّ أى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان. فإن كنا نقرأ على سبيل المثال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] فليس معنى ذلك أن مغفرة اللَّه ورحمته هى فعل ماضٍ، ولكن لنقل: كان اللَّه غفوراً رحيما ولا يزال غفوراً رحيما؛ إنه سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه، ومن باب أولى أن يكون غفورًا رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة. إن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن تعتريه الأحداث فيتغير. إن الزمن مخلوق من مخلوقات اللَّه، فلا تقل: متى أو أين؟ لأنهما به وجدا، والحق يأتى بالماضى؛ لأنه متحقق الوقوع، وإذا قال اللَّه عن شىء: إنه سيحدث؛ فلابد أن يحدث.

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع فإنه ينسبه لأمه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائما على وجهين: إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله، فيريد أن يعلمه من المسئول، كقول القائل: أقابلك فلان أمس؟ وإما ليقرَّ المسئول بما يعلمه السائل. ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ، إن الأستاذ يسأل التلميذ ليقر بما تعلمه. وحاول بعض المستشرقين أن يقولوا: إن هناك تناقضًا فى القرآن - والعياذ بالله - واستندوا فى ذلك إلى قول الحق: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل، ويعتقد. ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا؟ لا، سوف يُسألون؛ ليقرروا ما فعلوه، لا ليعلم اللَّه منهم ما

فعلوه؛ فهو سبحانه عليم بكل شيء. وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين: وجه ليعلم السائل، ووجه ليقرر المسئول. وسؤال الحق للناس يوم القيامة؛ ليقرروا ما فعلوه وما كان منهم؛ لأن الإقرار سيد الأدلة، وليس سؤال الحق سبحانه وتعالى سؤال من يرغب فى أن يعلم؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء والإنسان عليه أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه، وكذلك كان عيسى ابن مريم عليه السلام. وكذلك يكون سؤال اللَّه لعيسى عليه السلام. إنه لتقريع من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلغهم إياه. إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون اللَّه؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردًا على هذه الافتراءات من الأتباع: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وحين نسمع ﴿سُبْحَانَكَ﴾ لِنعرف أنها إجمال التنزيه لله عز وجل، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق اللَّه، فللَّه تقدَّس اسمه وجود وللإنسان وجود، ولكن إياك أن تقول أيها الإنسان: إن وجودك كوجود اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأن وجود اللَّه عز وجل ذاتى، ووجودك غير ذاتى. وكل ما فيك موهوب لك من اللَّه سبحانه وتعالى، وكذلك فليس غناك كغنى اللَّه سبحانه وتعالى، ولا قدرتك كقدرة اللَّه سبحانه وتعالى، ولا أى صفة من صفاتك كصفات اللَّه؛ لأنه سبحانه له مطلق القدرة والقوة، إنَّ كل شيء يتعلق باللَّه يجب أن تأخذه فى نطاق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ سبحانه، وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من اللَّه سبحانه، ليس له أن يقول: إنه إله، وفى هذا القول تقريع لمن ادعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول، ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضية متفق عليها فقال لربه: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إن الكل متفق على أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم كل ما بَدَر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال، والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخفى عليه شيء، والكل يعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور؛ قال عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وهو بهذا يقرر أن الحق سبحانه وتعالى بكل شيء ويعرف أن ذلك لم يخطر له على بال. وهذه هى العلة فى إيراد ثلاث صور فى هذه الآية:

الصورة الأولى: تنزيه عيسى عليه السلام لربه عز وجل بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

والصورة الثانية: هى قول عيسى لربه: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾.

والصورة الثالثة: هى قوله لربه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

إذن.. فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك، وإنما هو تقريع من اللّه عز وجل لمن قالوا فى عيسى عليه السلام وأمه غير الحق، ويختم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وكلمة ﴿عَلَّامُ﴾ هى مبالغة فى ذات الحدث، ومبالغة فى تكرار الحدث؛ فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه لأن الكون كله ملك له.

عيسى عليه السلام

رسول إلى بنى إسرائيل وشاهد عليهم

يقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره اللَّه ببلاغه، وأنه دعاهم إلى عبادة اللَّه كربٍّ له ورب لهم جميعا، وعيسى شاهد عليهم فى كل تصرفاتهم وهو موجود بينهم، والشهيد كما نعلم هو الذى يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه. وبعد أن يتوفاه اللَّه يكون الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم، والرقيب هو الشاهد الذى يقدر أن يمنع الحدث، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات؛ كأن يبعث لهم من يذكرهم، ليهديهم أو يكف أيديهم، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق، ولذلك قال اللَّه تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط، ولكن لرقابته أيضا، ويؤكد ذلك بتذييل الآية ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

إن الحق الذى يشهد ويقدر أن يفعل ما يريد، ومسألة الرفع كما نعلم هى الأخذ كاملا دون نقض فى البنية بالقتل أو الموت. ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمدًا ﷺ بالإسراء والمعراج إلى السماوات وعاد إلينا مرة أخرى؛ ليكمل رسالته، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول اللَّه ﷺ.

إن أمر الرفع فى الإسلام مقبول؛ فقد رفع اللَّه رسول اللَّه ﷺ ودار بينه وبين

إبراهيم عليه السلام حوار، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى عليه السلام، وآدم عليه السلام وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة. وهكذا تعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ. إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق؛ لذلك فكل شىء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام. فإن اللَّه يأتى به فى أسلوب لا يسبب الفتنة، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً. ولذلك جاء الحق بمسألة الإسراء بنص قطعى، أما مسألة المعراج فلم تأتِ نصًا إنما التزاماً؛ لأن الحق سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم] وهكذا فالإسراء آية أرضية والمعراج آية سماوية. وقد وصف رسول اللَّه ﷺ بيت المقدس لمشركى قريش؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

إذن.. جاء الإسراء نصًا؛ لأنه آية أرضية. أما الآية. السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً، وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام فمن يرى أن القدرة المطلقة لله فهو يصدق ذلك، ومن يقف عقله نقول له: إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة: ﴿تَوَفَّيْتَنِى﴾ فنجد أن الوفاة تعنى إماتة والحق يقول: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

أى: أماتته. والحقُّ تعالى يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

والله سبحانه وتعالى يقول أيضا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

إنه يسمى النوم: وفاة، وسماه موتاً، وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض، ومعنى الموت فى بعض مظاهره: غياب حس الحياة، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة.

إذن.. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم، ويقال أيضا عن الدَّين: توفيت دَينى عند فلان: أى أخذت دَينى كاملا غير منقوص، وكذلك أمر قتل

المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضا، فقد قال الحق: ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾. إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح. وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أى أخذتنى كاملاً غير منقوص. وهذه مسألة لا تنقض الرفع، ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالا للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم المشهد الأعظم. وعيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم، ولكن بعد أن رفعه اللّه إليه فإن الرقابة على القوم تكون لله. لقد قسم المسألة بينه وبين ربه، فالحق سبحانه شهيد دائما ورقيب دائما، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير فسبحان الذى يُغَيِّر ولا يتغيَّر.

❁❁❁

عيسى عليه السلام

يفوض أمر قومه لمشيئة اللَّه تعالى

جاء على لسان عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ولقائل أن يقول: أليس فى ذلك الأمر إشكال واضح لقد فتن بعض أتباع عيسى، فاتخذوه هو وأمه إلهين من دون اللَّه، فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذة الآية؟! ونقول: إن عيسى عليه السلام لم يقل: يارب اغفر لهم، ولكن؛ قال مجيبا ربَّه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لقد فوَّض عيسى الأمر لربه عز وجل، وهو كرسول من عند اللَّه تعالى يعلم أن رحمة اللَّه سبحانه وتعالى سبقت غضبه، وأنّ له طلاقة القدرة.

ونحن نعرف أن كل خلق اللَّه هم عبيد لله، لكنَّ المطيعين لله عز وجل والمؤمنين به خاصة.، هم عباد اللَّه سبحانه وتعالى. فالخلق نوعان: عباد لله ذهبوا إليه إيماناً ومحبة وطاعة، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهَرون لقاهرية سيدهم، وحتى الكافر لم يكفر رغما عن اللَّه؛ بل كفر بما آتاه اللَّه من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وكان الحق قادرا على أن يخلق خلقا لا يعصون اللَّه سبحانه وتعالى ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم به صاحب الأمر والنهى، وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة، لكن قدرة اللَّه تثبت صفة من صفات اللَّه وهى القهر، ولا تثبت صفة المحبة؛ فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختارًا أن يؤمن أو أن يكفر، ثم يختار الإيمان، إنّه بذلك آمن محبة واختياراً، وهكذا يريد اللَّه عز وجل بخلقه المؤمنين به، فكل الوجود ما عدا الإنس والجن مقهور ولا يقدر على المعصية فالشمس والقمر والمطر والهواء والسحاب وكل ما فى الكون مقهور لله القهار.

إذن.. فلو أراد اللَّه - جلَّت قدرته - خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنس والجن، أما الإنس والجن فقد خلقهم اللَّه مختارين بين الكفر والإيمان،

حتى يأتى بعض من العباد؛ ليصنعوا ما يحبه اللَّه ويرضاه ويتّبعوا منهج اللَّه، فيجازيهم اللَّه الجزاء الحسن، ويأتى فريق آخر فيكفرون بالله ويرفضون منهجه - بمحض اختيارهم - فأولئك لهم الجزاء السيئ حسب عملهم. وهناك فريق آخر ليس عليه تكليف؛ إذ إن التكليف للعباد لا يتم إلا بوجود ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يوجد العقل.

والشرط الثانى: أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد.

والشرط الثالث: ألا تكون هناك قوة أعلى من الإنسان تهدد حياته وتقهره على فعلٍ ما.

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف؛ وهم: المجنون، ومن لم يبلغ الحلم، والمكره. والحق قد أعطى مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وبذلك ليس لك عند اللَّه سبحانه وتعالى حجة أيها الإنسان، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد اللَّه سبحانه وتعالى، ومن عصى اللَّه وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا الاختيار. إذن.. فالعباد هم الذين دخلوا العبودية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر. أى بين المراد للَّه عز وجل وغير المراد للَّه سبحانه وتعالى.

فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم عليه السلام، رغم علمه بكفرهم: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾؟ نقول: إن معنى العباد والعبيد - الذى شرحناه سابقا - هو وضع الإنسان فى الدنيا، لكن لنا أن نعرف أن هذا الحوار الذى نقرؤه بين عيسى عليه السلام وبين الحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة، وكلنا فى الآخرة عباد مقهورون، وعندما نستقرئ كلمة «عباد» فى القرآن، نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد اللَّه فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تمامًا. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد، والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

أما فى الآخرة فكلنا عباد. فها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب الذين أضلوا غيرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]. إن الكل عباد لله عز وجل يوم القيامة، والكل ينفذ مراد اللَّه سبحانه وتعالى ولا ولاية لأحد على أى شىءٍ حتى أبعاضه، فالعين التى كانت

مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى بها الحلال أو يرى بها الحرام؛ هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم وكل الأبعاض. إن النفس الإنسانية تكون كالقائد لكل الأبعاض والجوارح فى الدنيا تنفذ أوامره سواء بالخير أو بالشر، سواء للطاعة أو للمعصية لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على الإنسان فى كل ما فعل، فليس لأحد مراد غير مراد اللّه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد اللّه فصار الكل عبادًا لله عز وجل، وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول اللّه سبحانه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾.

ونعلم أيضا أن كلمة عبيد تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيّرين فيه مثل إدارة التنفس، أو ميعاد الميلاد، أو ميعاد الموت، ولكنَّ المؤمنين يرتقون، بعبوديتهم لله بتنفيذ منهجه وطاعته. أما الكافرون فهم يعصون اللّه بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان على معاندة منهج اللّه سبحانه وتعالى، وحتى يثبت الحق سبحانه وتعالى لنا جميعاً أنهم فى قبضته وإن كفروا، فإنه يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة؛ ولا يجرؤ واحدٌ منهم أن يعارض مراد اللّه فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم، وقد يستدرجهم بالغنى والجاه والسلطان ويكون ذلك عذاباً لهم؛ ولذلك يقول اللّه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم] ولذلك فالمؤمن يشكر الحق عز وجل باختياره؛ لأن اللّه عز وجل حماه بأدوات الاختيار وجودًا ونضجًا وعدم إكراه.

وكما قلنا عندما يسأل اللّه عيسى فى الموقف العظيم، يوم القيامة، عن الذين فتنوا فيه وفى أمه، سيجيب قائلا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. وهذا التّذييل لكلمات عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من اللّه على الذين كفروا بالله، وأشركوا به. فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون اللّه. إنه القادر العزيز إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم بمقتضى عزته وحكمته سبحانه وتعالى. وبعض السطحيّين قالوا تلمّزًا فى القرآن: ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى: إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول: إن كل كلمة فى القرآن تأتى فى مكانها بالضبط ولا تحل مكانها كلمة أخرى؛ لأنه كلام اللّه وإلا اختلف المعنى المراد. ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية دالّا على إعجاز القرآن الكريم.

والموقف عصيب يوم القيامة فلا ينفع المال ولا الجاه إنما الذى ينفع هو الصدق، والعمل الصالح؛ ولذلك يقول الحق: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، فالصدق ينفع أصحابه يوم القيامة ولما كان عيسى عليه السلام صادقاً مع ربه فيما أمر.، فإنه سيجيب على سؤال ربه قائلا: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولذلك يقول اللّه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وكيف ينفعهم ذلك الصدق؟إنهم ينعمون ويفوزون برضا اللّه عنهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

وإن تساءل إنسان كيف يرضى العبد عن ربه؟نقول: إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور والسرور والفرحة ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾

ويذيّل الحق الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الزمر: ٧٤]؛ والفوز فوزان: فوز عظيم وفوز سطحى، والفوز السطحى هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجلّ، فيبدو ظاهريا كأنه قد فاز لكنه فى الحقيقة لم يَفز؛ لأن الندم سيعقبه وأى لذة يعقبها الندم ليست فوزاً. إنّ الدنيا بكل ما فيها من نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره وهو نعيم مهدّد بشيئين:

الشىء الأول: أن يزول النعيم عن الإنسان، وكثيراً ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم.

والشىء الثانى: أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونحن نرى ذلك كثيراً.

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ، ولا يقطعه شىء. كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا . . . ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]. والسماء والأرض هما ظرف للوجود فلله ملك السموات وما فيهن وملك الأرض وما فيها.

إذن.. فقول الحق: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإجابة عيسى يوم القيامة عن سؤال ربه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ نفهم منهما: أنه

ليس شئ من خلق اللّه يستطيع أن يخرج عن مرادات اللّه. أما فى الدنيا فقد جعل اللّه سبحانه وتعالى أسبابها فى أيدى الناس فإن لكل إنسان من هو أعلى منه، فهناك المسئول عن الطعام والمسئول عن البيت والمسئول عن الثوب، ولكن ليس كل مسئول مَلِكًا؛ لأن الملك هو الذى يملك كل شىء وهذه سنة اللّه عز وجل فى كونه، لكن فى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

لقد نقضوا كل المواثيق، ونقض الميثاق هو حله؛ لقد كفروا بآيات اللّه وقتلوا أنبياء اللّه بغير حق، وادَّعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية.

إذن.. قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات، وهذه الحيثيات هى:

أولاً: نقضوا الميثاق، وذلك يستوجب ما يتوعدهم اللّه به.

وثانياً: كفروا بآيات اللّه التى أنزلها؛ لتؤيد موسى.

وثالثاً: قتلوا الأنبياء بغير حق.

وقالوا تعليلاً لذلك: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ أى قلوبهم مغلفة، ومعنى ذلك أنها قلوب مختوم عليها ختم كالغلاف بحيث لا يخرج منها ما فيها، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على اللّه، فقالوا: قلوبنا لا يخرج منها ضلال، ولا يدخل فيها إيمان، وقد تقدم مثل لهذا حين قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة].

نقول لهم: هل القلوب خلقت غلفًا، أم خلقت مختومًا عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال؟ إن الحق سبحانه الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة؛ فالختم على القلب حتى لايتعرف على الدليل؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والختم على السمع والبصر هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق سبحانه، فمقر العقائد مختوم عليه، وهو القلب، ضربت غشاوة على الآذان وعلى البصر، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء؟ لا؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين، فلماذا خَصَّهم اللّه بذلك التكوين دون غيرهم؟ والذين اهتدوا لم يكن مختوماً على قلوبهم، ولا على أسماعهم؛ ولا على أبصارهم. لماذا؟

وللرد على هؤلاء نقول: إن الواحد منهم يريد أن يبرِّر انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول بأن الله خلقه هكذا؛ ولكنّ هذا قول مزيف وكاذب؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولاً، فلما كفر، وانصرف عن الحق تركه الله على حاله، لماذا؟ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن اتخذ مع الله شريكاً تركه الله وشركه.

إذن.. الختم جاء كنتيجة للكفر والآيتان قدمتا الحيثية، وهى أن الكفر يحدث أولاً، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك. وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إذن.. فالكفر هو الذى يأتى أولاً، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول: إن الله لا يهدينى، هو أن الله لا يهدى من كفر به، فإن كفر الإنسان مانع لهدايته.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾. يدفع إلى سؤال هو: لماذا جاءت «ما» هنا؟ بعضهم قال: إن «ما» هنا زائدة. ونقول: ليس فى كلام الله حرفٌ زائدٌ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى كان يتم بغير وجوده.

إن القرآن هو الكلام المعجز، وجاء محمد ﷺ ليبلغهم أنه جاء بالقرآن معجزة يعجزون عن محاكاته، مع أنهم عرب وفصحاء؛ وبما أن المتحدىَ دائماً يحاول أن يتصيدَ خطأ ما. وبما أن العرب لم يقل واحد منهم: إن فى القرآن لحناً، فهذا دليل على أن الأسلوب يتفق مع الملكة العربية.

إن قول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ معناه: بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه قيل: إن «ما» هنا زائدة، وهى زائدة للتأكيد، ونكرر هنا: إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفًا زائدًا. لقد جاءت ما هنا بمعنى واضح؛ فقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾، أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم ذلك.

لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة؟ إن ما بعد «الباء» هو السبب فى هذه الضجة، ونحن نعلم أنه يوجد فعل ومصدر للفعل كقولنا: «أعجبنى ضرب السيف» وضَرْب مصدر للفعل «ضَرَبَ» فالذى يعجب هو الضرب، والضرب لا ينبئنا إلا من حدث، فكأنه يقول: «أعجبنى أن يضرب زيد»، أى أن المصدر قد انحل إلى فعل، وقد يقول قائل: «أعجبنى علم زيد بالمسألة» ومعناها: «أعجبنى أن يعلم زيد بالمسألة» ومعناها أيضاً «أعجبنى ما علم زيد من المسألة» و «ما» هنا مصدرية أيضاً.

إذن.. فقول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ هذا النقض هو مصدر، والمصدر حدث، والحدث لا يأتى إلا من فعل، والنقض معناه أنهم نقضوا الميثاق، وتحللوا

منه، فكأن الحق يقول: فبما نقضوا من حدث فعلنا بهم كذا وكذا، لذلك دخلت «ما» بعد الباء وقبل المصدر؛ لأن المصدر فيه أصل الاشتقاق الفعلى، ويكون المعنى بسبب نقضهم الميثاق وبكذا وكذا طبع الله تعالى على قلوبهم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، نجد أن الحق لم يقل: فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير الحق وقولهم قلوبنا غلف طبع الله على قلوبهم إن وجود ﴿بَل﴾ يدلنا على أن هناك أمرًا أضربنا عنه، فنحن نقول: جاءنا زيد بل عمرو أى إن المتكلمين قد أخطأوا فقالوا: جاءنا زيد واستدركوا أنفسهم: فقالوا: «بل عمرو» إنهم قد نفوا مجيء زيد، وأكدوا مجيء عمرو. والحق سبحانه قال: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

كان المقتضى أن يقول الحق بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم، لكن الله لم يقل ذلك لحكمة بالغة، وحتى نعرف هذه الحكمة فلنبحث عن المقابل لطبع الله على قلوبهم. إن المقابل هو فتح الله على قلوبهم بالهدى.

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

إن عظمة القرآن أنه يأتى بالمعنى الذى يجب أن تفكر فيه، وأن تتدبَّر كل كلمة فيه، فكأن الله قد قال: فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف لم يفتح الله بالهدى عليهم؛ بل طبع على قلوبهم بالكفر، فلا يؤمنون إلا قليلا.

إذن.. فالله يقدم الأسباب لما صَنَعَه بهم فقدمها هنا بالحيثيات من نقضهم للميثاق وكفرهم بآيات الله وبقتلهم للأنبياء بغير حق، لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى؛ بل طبع الله على قلوبهم بالكفر. إن وجود ﴿بَل﴾ دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد ونجد أن الأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان، والأمر الذى تأكد هو أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر.

وفى آية أخرى قال عنهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. إن قلوبهم ليست غلفاً، ولكنْ لعنة الله عليهم وإبعاده لهم وطرده إيّاهم واستغناؤه عنهم، لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات.

وقد يقول قائل: لماذا ذَيَّلَ الحق الآية بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ ونقول: إن هناك سامعاً للقرآن أو قارئاً له تغلبه الآيات ومن بعد ذلك تستيقظ نفسه وتصحو، ولا تستيقظ النفس وتصحو إلا إذا نُبِّهت بشيء، إن الحق بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو قول مقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس، إنه صيانة الاحتمال وصيانة الاحتمال أن يعلن واحد من هؤلاء إيمانه رغم أن اللَّه قال عنهم: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾؛ إن إيمانه إذن لن يكون أمراً مفاجئاً؛ لأحد؛ لأن الحق قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

قد يقول قائل: ألم يقل الحق من قبل أن «كفرهم» هو سبب من أسباب طبع اللَّه على قلوبهم؟ وأقول: إياك أن تقول: إن هناك كلمة فى القرآن مكررة؛ لأن الذى يتكلم هو اللَّه سبحانه وتعالى، فهو لا ينسى شيئًا، ولا يكرر من غير داع. فالكفر أيضاً على درجات مرة: يكون الكفر باللَّه، ومرة يكون الكفر بآيات اللَّه، ومرة ثالثة يكون الكفر بالرسل، ومرة يكون الكفر ببعض النبيين، ومرة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية. إن الكفر أشياء شتى، فالكفر فى الآية السابقة كفر بآيات اللَّه، وكفرهم فى هذه الآية يشرحه قول الحق: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾. لقد كفر هؤلاء بعيسى عليه السلام وقالوا البهتان على مريم، لقد كفروا إذن بآيات اللَّه، وبرسول من رسل اللَّه، وهكذا تتعدد أشكال الكفر.

وقول الحق: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هو عطف على ﴿نَقْضِهِم﴾، وعلى ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وعلى ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾، وعلى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ ونلاحظ أن الحق لم يكرر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾، ولم تتكرر الباء فى بقية المعطوفات فى الآية؛ وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى، فقد كان يكفى ارتكابهم لأى عمل من هذه الأعمال أن يطبع على قلوبهم، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة، ولم يرتكبوا فعلاً واحدًا منها وهذا يدل على أن اللَّه لا يترصّد لعبيده؛ ولكن يستميل العباد إلى الإيمان؛ لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة: نقضهم للميثاق، وكفرهم بآيات اللَّه، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم طبع اللَّه على قلوبنا. ومن رحمة اللَّه أن جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة.

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم يقول تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة. لماذا؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نَبِئ من أولى العزم من الرسل إنه نبى خصّه اللّه بأشياء، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقه اللّه خلقاً خاصًا، فالله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين، ونفخ فيه من روحه، فجاء من غير أصول، لا أب، ولا أم، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام، بدون أم، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مهين، أما عيسى عليه السلام، فقد خلقه اللّه، فجاء من أم بدون أب، فكيف تكفرون به؟!!

وأيضاً أمه مريم البتول عليها السلام، التى عاشت فى كفالة نبى اللّه زكريا عليه السلام، وكانت خادمة بيت المقدس، وتربت تربية دينية عظيمة، كيف تتهمونها بالفاحشة؟!! إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان. إن الحق سبحانه هنا يحدد سببين لكفرهم:

الأول: قولهم البهتان على مريم، وهو كفر بالله.

الثانى: كفرهم بعيسى عليه السلام، الذى ولد بغير طريقة الميلاد العادية؛ رغم أن هذا تكريم له، وتقريع لليهود الذين غرقوا فى المادية، حتى إنهم قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

وعندما رزقهم اللّه برزق غيبى لا يعرفون أسبابه، كما رزقهم بالمن والسلوى، قالوا لهذا الرزق: لا، نحن نريد أن نزرع نباتًا لينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب؛ لأن الغيب قد يضنّ علينا وذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. إنهم لا يثقون بما فى يد اللّه ويريدون الأمر المادى.

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفتة قسرية، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه، وهو ميلاد عيسى عليه السلام؛ إن البشر فى مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب، وبذلك انتقضت المادية، ذلك أنهم ماديون، وغفلوا عن الخلق الأول.

إذن.. فلماذا الفتنة في عيسى عليه السلام؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزّةً لليهود الماديين، ونقض أمامهم الأساس التقليدى لمجيء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم، فالله سبحانه يثبت بذلك طلاقة القدرة، الحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر، فإن أراد البشر شيئاً فعليهم أن يأخذوا بالأسباب، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئاً فإنه يكون بلا أسباب فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب.

ولذلك قلنا قديماً: إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء.

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشيئين، هذه هى الصورة الأولى.

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشيئين، وهذه الصورة الثانية.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول، وعدم وجود الشيء الثانى وهذه هى الصورة الثالثة.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول وهذه هى الصورة الرابعة.

تلك هى الصور الأربع لوجود شيء ما، ولم يشأ اللَّه أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخّر له الحقُّ كلَّ الكون على نحو واحد، لماذا؟ حتى لا يقولنَّ أحد إن السببية مشروطة الوجود، ولكن لنعرف أن إرادة اللَّه هى الشرط فى الوجود، بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وخلقنا نحن من أب وأم، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب، وخلق حواء من أب دون أم، هذه هى القسمة العقلية الواضحة، فليست المسألة توفُّر الأسباب للوجود، ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا.

ونحن نرى أيضاً قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم، ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين. وذلك قول الحق سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى].

إذن.. فليست المسألة مدار أسباب توجد؛ بل مسبِّب يريد أن يوجِد، ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة؛ ليلفت بنى إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم، ويثبت لهم طلاقة قدرته. ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم.